**الفصل الثالث**

**روح تائهة**

**– 1 –**

(5) حسيب محمد جعفر الذي يبلغ الحادية والعشرين من العمر، الأسمر النحيف المتزوج من دعاء جبّار ويسكن معها وابنتهما زهراء حديثة الولادة في قطاع 44 في مدينة الصدر في غرفة داخل بيت عائلته الكبيرة، (6) والذي يعمل منذ سبعة أشهر حارساً في فندق السدير نوفوتيل قتل في الانفجار الذي تسبب به انتحاري سوداني الجنسية يقود كابسة نفايات مسروقة من أمانة بغداد مملوءة بالديناميت، (7) وكان يخطط لتجاوز الباب الخارجي والدخول بالسيارة داخل استعلامات الفندق وهناك يقوم بتفجيرها لإسقاط البناية بالكامل بمن فيها، وفشل في ذلك بسبب الإطلاقات النارية المتلاحقة التي ألقها الحارس الشجاع تجاه سائق الكابسة ما عجّل في تفجير الصاعق. (8) تم تسليم أغراض الحارس إلى عائلته؛ ملابسه المدنية وزوج جوارب لم تفتح بعد وقنينة معطّر جسم مع المجلّد الأول لقصائد السياب طبعة دار العودة اللبنانية. وفي التابوت وضعوا حذاء الأسود المحترق ومزق من ملابسه الملوثة بالدم وبقايا صغيرة متفحمة من جسده التلاشي. اختفى حسيب محمد جعفر تماماً. والتابوت الذي نقل إلى مقبرة النجف كان افتراضياً. (9) احتضنته زوجته الشابة وبكت محرقة وصراخ يشبه العواء طويلاً، كذلك فعلت أمه وأخواته وجيرانه، وظلت ابنته الصغيرة الذاهلة ذات الفم المبلول تتناقلها الايدي كلما شبّت ففي روح من يحملها نيران الحزن الشديدة.

(10) ينامون جميعاً بعد ارهاق البكاء ويحلمون بحسيب وهو يتمشى بحقيبة قماشية على كتفه عائداً إلى البيت. كل فرد في العائلة يحلم بشيء ما عن حسيب، تلتئم الاحلام جميعاً وتتضافر، يعوض بعضها بعضاً، يسد حلم صغير ثغرة في حلم كبير وتتشابك خيوط الاحلام مكونة من جديد جسداً حلمياً لحسيب يناسب روحه التي مازالت محلّقة فوق رؤوسهم جميعاً وتطلب الراحة ولا تجدها. (11) فأين هو جسده الذي ينبغي أن يعود إليه كي يغدو ساكناً طبيعياً من سكّان عالم البرزخ؟

يشطّ بعضهم في أحلامه، فيحمل كرة الخيوط الحلمية المضفورة والمتصلبة على نفسها ويدفعها بيده إلى البعيد. إلى أبعد مما تخيل أفراد العائلة والأصدقاء والأقارب والجيران جميعاً، إلى مكان لم يرد في خواطرهم أبداً.

**– 2 –**

(12) كان حسيب ينظر إلى سيارة النفايات وتتلاحق في ذهنه الأوامر والاستجابات المتناقضة، انها سيارة نفايات ليس إلا، لقد أخطأ السائق، فقد السيطرة على مقود السيرة فاندفعت تجاه الباب. حصل حادث مروري لم ينتبه له فاندفع سائق السيارة بسببه ودون قصد نحو باب الفندق، لا . . انه انتحاري . . توقف . . توقف . . إطلاقة ثم أخرى. لم يكن يقصد قتل السائق، لا يتجرأ على قتل أحد، لكن هذا واجبه، (13) يعرف جيداً الأوامر المتشددة بشأن حماية الفندق، هناك شركات أمنية وشخصيات حساسة ولربما أميركان في هذا الفندق. لديه ترخيص بالقتل، كما يقولون. تتدافع الأفكار في ذهنه بأجزاء من الثانية ويده تضغط على زناد البندقية، ربما قبل أن يحسم أمره بشأن الاستجابة الأفضل تجاه هذا المأزق. انفجرت السيارة، (14) وانتبه حسيب محمد جعفر لنفسه وهو يتابع الانفجار، ولكن ليس من موقعه ما بين الكابينة الخشبية والباب الخارجي العريض للفندق والمصنوع من القضبان المعدنية المتعامدة. كان يشاهد النيران والدخان وتناثر أجزاء حديدية في الهواء، ويشعر مع ذلك بهدوء غريب.

(15) شاهد رجلاً مع كيس جنفاص أبيض يتطوحان في الهواء ويسقطان على مسافة بعيدة عن موقع الانفجار، وشاهد تناثر زجاج نوافذ الفندق وواجهة الاستعلامات العريضة باتجاه الباحة الأمامية للفندق. بعد لحظات همدت غيمة الدخان ومرّت نصف ساعة قبل أن تجيء سيارات الإسعاف والاطفائية.

(16) كل شي انتهى، وظل يراقب العتمة الداكنة تغطي المدينة كلها. شاهد الاضوية البعيدة للبنايات والبيوت والسيارات، وشاهد بعض المجسرات القريبة. شاهد اضوية ملعب الشعب الكاشفة، وبعض المنائر البعيدة المغطاة بالكامل بالاضوية الساطعة.

شاهد النهر أيضاً، داكناً وعميقاً في الظلام، أراد أن يمسه بيده. لم يمسس ماء النهر ابداً. (17) عاش حياته كلها بعيداً عن النهر. يعبر من فوقه بالسيارة. يراه من مسافة بعيدة، يراه في صور التلفزيون. لم يتحسس برودة هذه المياه أو طعمه. شاهد رجلاً سميناً بفانيلة بيضاء وشورت أبيض فصير ينام في المياه ووجهه إلى الأعلى. يالها من سعادة. كان بالتأكيد يراقب النجوم الصافية لهذه الليلة. (18) ينحدر ببطء مع حركة المياه. يدنو منه وينظر في وجهه:

-- ليش تباوع وليدي... ورح شوف الجثة مالتك وين صارت... لا نظل هنا.

شاهد جثة أخرى مقلوبة على وجهها تسبح في المياه أيضاً. لم تتحدث بشي. كانت صامتة تماماً وتسبح ببطء.

– 3 –

(19) عاد ونزل إلى بوابة الفندق وتأمل الحفرة الكبيرة التي صنعها الانتحاري بسيارة الملغمة. نظر في أرجاء المكان كلها. تعرف على بسطاله المحترق، ولم يعثر على جثته. نظر إلى الشوارع كلها، إلى ساحة الفردوس وذهب إلى ساحة التحرير وشاهد طيوراً كثيرة تنام على القطع البرونزية لنصب الحرية. ثم خطر في باله أمر ما فقرر التوجه إلى المقبرة.

(20) هناك في وادي السلام في النجف تفحص القبور كلها. لم يعثر على شيء يدله على باب الخروج من حيرته. في النهاية شاهد شاباً مراهقاً يرتدي تي شيرت أحمر مع سوارين فضيين في معصميه وقلادة من خيط قماشي أسود. كان جالساً على قبر مرتفع ويضع رجلاً على رجل.

(21) -- لماذا أنت هنا ... عليك أن تبقى بجوار جثتك.

-- لقد اختفت.

-- كيف اختفت؟ ... لا بد أن تجد جثتك، أو أي جثة أخرى. . وإلا راح تنلاص عليك.

-- كيف تنلاص؟

-- لا أعرف ... بس هي تنلاص دائماً.

(22) -- لماذا أنت هنا؟

-- هذا قبري . . جسدي يرقد في الأسفل. بعد بضعة أيام لن أستطيع الخروج بهذه الطريقة، تذوب جثتي وتتحلل فأبقى مسجوناً في القبر إلى أبد الآبدين.

جلس بجواره وشعر بحيرة كبيرة، فما الذي يفعله الآن؟ لم يخبره أحد ما بهذه الأمور سابقاً. أي كارثة مضافة تنتظره يا ترى؟

(23) -- ربما لم تمت فعلاً ... ربما أن تحلم الآن.

-- ماذا؟

-- نعم ... تحلم ... أو ربما خرجت روحك من جسدك في نزهة وستعود لاحقاً.

-- الله يسمع منك ... آني ما متعود على هاي الوضعية ... بعدني زغيّر عندي بنت و . .

-- زغيّر؟!! ... مو ازغر مني.

(24) امتد الوقت وهو يتحدث مع الشاب ذي السوارين الفضيين، والشاب يؤكد له بين لحظة وأخرى ضرورة العودة إلى جثته. فلربما كتب الله له حياةً جديدة.

-- أحياناً تخرج الروح من الجسد. تموت، ثم يغير عزرائيل رأيه، أو يصحح الخطأ الذي ارتكبه فيعيد الروح إلى جسدها . . ثم يعطي الإله أمراً للجسد أن ينهض ... يعني تكون الروح مثل البنزين في السيارة، ولكن تشغيلها يستوجب قدحة زناد.

(25) مر صمت بينهما وهدوء ثم سمع بكاءً بعيداً وشاهد كلاباً سوداء بلون الحبر تتعارك مع بعضها. نظر إليه الشاب ذي السوارين بقلق وقال له بلهجة آمرة:

-- روح شوف جثتك وين صارت ... أو سوّي حل لنفسك ... وإلا راح تنلاص عليك.

– 4 –

(26) عاد إلى الفندق ثم تفحّص الشوارع كلها. مضت ساعات طويلة، ذهب إلى بيته ورأى الجميع نياماً؛ زوجته وابنته وبقية العائلة، ثم عاد قبيل الفجر إلى المكان نفسه الذي شهد موته، شعر بأنه يدور في حلقة مفرغة وأنه واقع في مأزق كبير. شاهد شخصاً عارياً نائماً وسط بيت في البتاويين، (27) أقترب منه وتأكد من أنه شخص ميت. لم يكن شخصاً محدداً. تأمل هيئته الغريبة والبشعة. نظر إلى السماء وشاهد لونها يتغير مع اقتراب الفجر، وتيقّن بأن طلوع الشمس يعني كارثة مؤكدة بالنسبة له. لم يجد في نفسه طاقة ولا رغبة في الدوران من جديد في الشوارع والساحات أو العودة إلى مكان الحادث أمام بوابة الفندق. (28) مسّ بيده الهيولانية هذا الجسد الشاحب ورأى نفسه تغطس معها. غرقت ذراعه كلها ثم رأسه وبقية جسده، وأحسّ بثقل وهمود يعتريه تلبس الجثة كلها، فعلى الأغلب، كما تيقن في تلك اللحظة، أن هذا الجسد لا روح له، تماماً كما هو الأمر معه؛ روحٌ لا جسد له.

– 5 –

(29) لم تجر الأمور بعبث ومن دون معنى إذن. كانا يناديان بعضهما. وعليه الآن أن ينتظر الخطوة التالية التي سيقوم بها ذوو هذا الجسد، ينقلونه إلى مقبرة، يهيلون التراب عليه، يدفنونه (يدفنونهما معاً)، ولن يهمه أبداً ما سيكتبونه من أسماء على شاهدة القبر.